

أنثروبولوجية التحضر بين الفكر الخلدوني والفكر الايكولوجي

Anthropology of Urbanization Between Khaldunian Thought and Ecological Thought

ساعد هماش*، جامعة باتنة 1 الحاج لخضر، Saad.hemache@univ-batna.dz

تاريخ النشر: 2025/12/31

تاريخ القبول: 2025/12/28

تاريخ الإرسال: 2025/10/13

ملخص:

يعتبر التحضر من أهم المجالات البحثية والمواضيع التي تهتم بها الأنثروبولوجيا، خاصة في ظل التزايد الهائل لسكان المدن والهجرات من الريف إلى المدينة، حيث أصبح من الضروري فهم الظاهرة ودراستها دراسة تفصيلية معمقة، ومن بين أهم المفكرين الذين تناولوا التحضر بطريقة علمية تفصيلية نجد ابن خلدون من خلال مقدمته الشهيرة وتناوله لعلم العمران البشري، كذلك نجد في العصر الحديث الفكر الايكولوجي نسبة إلى المدرسة الإيكولوجية الأمريكية (مدرسة شيكاغو)، وفي إطار التفصيل والتعمق العلمي في ظاهرة التحضر تأتي هذه الدراسة النظرية لتناول موضوع التحضر بين الفكر الخلدوني والفكر الايكولوجي وفق منهجية تحليلية وربط علائقي من خلال إبراز كيف تناول كل من المفكرين ظاهرة التحضر وما هي الاختلافات وأوجه التشابه بينهما.

الكلمات المفتاحية: الأنثروبولوجيا، التحضر، الفكر الخلدوني، الفكر الايكولوجي (مدرسة

شيكاغو)

* المؤلف المرسل (https://orcid.org/0000-0002-7669-696X) ID

Abstract:

Urbanization is considered one of the most important research fields and topics of interest in anthropology, especially in light of the massive increase in urban populations and migration from rural to urban areas. It has become necessary to understand and study this phenomenon in a detailed and in-depth manner. Among the most prominent thinkers who addressed urbanization scientifically and comprehensively is Ibn Khaldun, through his famous introduction and his discussions on human civilization. In the modern era, ecological thought, attributed to the American ecological school (the Chicago School), has also contributed to this field. Within the framework of detailed and scientific exploration of the phenomenon of urbanization, this theoretical study examines the concept of urbanization between Khaldunian thought and ecological thought, using an analytical and relational approach to highlight how each school of thought addressed urbanization and what differences and similarities exist between them.

Keywords: Anthropology, Urbanization, Khaldunian thought, Ecological thought (Chicago School)

مقدمة:

تتقاطع تخصصات علم الاجتماع خاصة علم الاجتماع الحضري أو ما يسمى أيضا بعلم اجتماع المدينة بتخصص الأنثروبولوجية ما ينتج عنه تخصص الأنثروبولوجية الحضرية، ومن أهم المواضيع التي يتقاطع فيها كلا التخصص موضوع التحضر، حيث يمثل حركة تاريخية معقدة تتجاوز مجرد التنقل من الريف إلى المدينة؛ فهو عملية حضارية شاملة تشمل التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والبيئية، وفي هذا السياق تسعى هذه الدراسة إلى التفصيل في مفهوم التحضر أنثروبولوجيا بين منظورين فكريين متميزين: الفكر الخلدوني الذي ظهر في القرن الرابع عشر الميلادي، والفكر الإيكولوجي المعاصر الذي تطور في القرن العشرين، ويمكن الهدف الأساسي في إظهار كيف يمكن لرؤية تاريخية عميقة أن تحاور رؤية حديثة لفهم التحضر كظاهرة أنثروبولوجية شاملة، ولتحقيق ذلك سيتم التفصيل في العناصر الآتية:

أولاً / أنثروبولوجية التحضر في الفكر الخلدوني:

ثانياً/ أنثروبولوجية التحضر في الفكر الإيكولوجي والمنظور المعاصر للتحضر.

ثالثاً / جسور الالتقاء بين الفكر الخلدوني والفكر الإيكولوجي في أنثروبولوجية التحضر.

رابعاً / مواطن الاختلاف بين الفكر الخلدوني والفكر الإيكولوجي في أنثروبولوجية التحضر.

خامساً/ نحو تركيب أنثروبولوجي موحد بين المنظورين.

أولاً / أنثروبولوجية التحضر في الفكر الخلدوني:

ساهم ابن خلدون وبشكل كبير في الدراسات الاجتماعية والتاريخية منذ القرن الرابع عشر ويعتبر رائداً في تطوير منهجية علمية التحضر والظواهر التاريخية وتدينها، والفترة التي عاشها سادها نوع من الاضطرابات السياسية والتغيرات الاجتماعية في مختلف ربوع الدولة آنذاك، مما أتاح له

فرصة ملاحظة دقيقة للعمليات الاجتماعية المختلفة، ومن خلال مقدمته الشهيرة، استطاع تطوير رؤية شاملة حول الحضارة والتحضّر تتميز بالصرامة المنهجية والملاحظة الميدانية، وأدرك ابن خلدون أن التاريخ ليس مجرد سردية للأحداث بل يتبع قوانين محددة قابلة للدراسة والتحليل، مؤكداً على أهمية المنهج العلمي في فهم الظواهر الاجتماعية، قائلاً: "المعنى الباطن للتاريخ... يتضمن التأمل والبحث عن الحقيقة والتفسير الدقيق لأسباب الأشياء الموجودة والمعرفة العميقة بكيفية الوقائع". هذا التوجه يعكس نزعة علمية قديمة جداً تسبق الفكر الوضعي الحديث بعدة قرون، وقد حدد ابن خلدون عناصر أنثروبولوجيا التحضر في عدة نقاط أهمها (ابن خلدون، 2012):

1- الثنائية الحضارية: البدوية والحضرية

قدم ابن خلدون تصنيفاً ثنائياً أساسياً للمجتمعات البشرية يقسمها إلى نوعين رئيسيين: البدوية والحضرية، هذا التمييز ليس مجرد تقسيم جغرافي بل يعكس اختلافات جوهرية في أنماط الحياة والقيم والتنظيم الاجتماعي ويمكن التفصيل في ذلك فيما يأتي (ابن خلدون، 2012):

- **المجتمع البدوي:** يتميز بأسلوب حياة بسيط موجه نحو تلبية الاحتياجات الأساسية، يعتمد سكانه على الرعي والزراعة البدائية، ويعيشون في مناطق ريفية متفرقة، كما أن الحياة البدوية تتطلب حركة مستمرة بحثاً عن المراعي والمياه، مما ينعكس على تنظيم المجتمع بشكل أفقي يقوم على رابطة الدم والقبلية، ويشدد ابن خلدون على أن "البدويين يتميزون بالقسوة والشجاعة والقوة الجسمانية" لأن حياتهم القاسية تشدّ مهاراتهم الجسدية والنفسية. (Garrison، 2012)

- **المجتمع الحضري:** يمثل مرحلة متقدمة من التنظيم الاجتماعي حيث يستقر السكان في مدن ويشغلون بالتجارة والحرف والعلوم. توفر الحياة الحضرية "الراحة واللذة والرفاهية" مقابل البساطة البدوية، لكن ابن خلدون ينهنا إلى أن هذا الانتقال يحمل تبعات أخلاقية وسلوكية. يكتب: "الناس عندما يصلون إلى المرغوب من العيش والنعيم والترف والرغبة في الراحة، يتجهون إلى السكن)" (Garrison، 2012)

2- الوحدة الاجتماعية والعصبية:

يعتبر مفهوم العصبية من أهم المفاهيم في نظرية ابن خلدون حول الحضارة والتحضّر. تُعرّف العصبية بأنها "الشعور بالانتماء والتضامن والشعور المشترك بين أعضاء المجموعة الواحدة". هذا الشعور المشترك يوحد الأفراد ويدفعهم للعمل بتناسق نحو أهداف جماعية.

يلاحظ ابن خلدون أن العصبية تكون قوية جداً بين البدويين، خاصة بين القبائل التي ترتبط برابطة الدم والنسب. يستخدم ابن خلدون مفهوم العصبية لشرح كيفية قيام الدول والممالك. يكتب: "الملك لا يحصل إلا بالعصبية". تتراكم القوة العسكرية والسياسية عندما تكون العصبية قوية، مما يسمح لجماعة ما بفرض سيطرتها على مناطق أخرى وبناء دولة (شلي ربيعة، 2017).

لكن ابن خلدون يشير إلى أن الانتقال من البدوية إلى الحضرية يضعف العصبية تدريجياً. يقول: "الحضرية تضعف الشعور الجماعي، لأن الناس في المدينة ينشغلون بالتجارة والحرف والعلوم ولا يعودون في حاجة إلى بعضهم البعض بنفس الدرجة". هذا الضعف النسبي للعصبية يؤدي في النهاية إلى تراجع الدولة والحضارة (شيلي ربيعة، 2017).

3- العلاقة بين الإنسان والبيئة الطبيعية عند ابن خلدون:

غالباً ما يتم إغفال جانب مهم من فكر ابن خلدون، وهو فهمه العميق للعلاقة بين الإنسان والبيئة الطبيعية. أدرك ابن خلدون أن "المناخ والجغرافيا والموارد الطبيعية تؤثر بشكل مباشر على خصائص السكان الاجتماعية والاقتصادية". قسّم الأرض إلى سبع مناطق مناخية، واعتبر أن المناطق الثلاث المعتدلة هي الأنسب لنمو الحضارة بينما المناطق الحارة والباردة تحد من التطور الحضاري. يؤكد ابن خلدون على أن "الخصب والعقم يؤثران على حالة السكان والعمران". يشرح كيف أن الأراضي الخصبة بترتها الجيدة ومياهها الوفيرة تشجع الاستقرار والزراعة المتقدمة، مما يؤدي إلى زيادة السكان والحضارة. في المقابل، الأراضي القاحلة تحد من التطور الاقتصادي والاجتماعي (ابن خلدون، 2012). ما يثير الاهتمام أن ابن خلدون كان حساساً لقضايا التدهور البيئي. يلاحظ أن الإفراط في استخدام الموارد الطبيعية يؤدي إلى تدهور الحضارة. يكتب: "والإضرار بالموارد التي يعتمد عليها الإنسان سيعود الضرر على الإنسان نفسه". هذا الوعي المبكر بالعلاقات المتبادلة بين الإنسان والبيئة يعكس فهماً إيكولوجياً حقيقياً، وإن لم يستخدم ابن خلدون المصطلح الحديث.

4- الدورة التاريخية والتحول من البدوية إلى الحضرية

يرى ابن خلدون أن التاريخ يتبع نمطاً دورياً محدداً. ينتقل المجتمع من حالة البدوية البسيطة إلى مرحلة وسيطة ثم إلى الحضرية المتقدمة، وفي النهاية قد يعود إلى البدوية إذا انهارت الدولة والحضارة. يقسم ابن خلدون هذا الانتقال إلى مراحل متعددة (ابن خلدون، 2012):

- المرحلة الأولى (الحاجة): حيث يسعى الإنسان لتلبية احتياجاته الأساسية فقط - الغذاء والملبس والمأوى.

- المرحلة الثانية (الكمال): حينما تزداد الموارد ويبدأ الإنسان في البحث عن الراحة والمتعة.

- المرحلة الثالثة (الترف): حيث تتطور الحضارة بشكل كامل مع ظهور العلوم والفنون والحرف المتقدمة.

هذا التسلسل ليس حتمياً أو خطياً بل يعكس ديناميكية معقدة تتأثر بعوامل متعددة: القيادة السياسية، القوة العسكرية، الاستقرار الاقتصادي، والتوازن البيئي.

ثانياً/ أنثروبولوجية التحضر في الفكر الإيكولوجي والمنظور المعاصر للتحضر.

يمثل تقاطع أنثروبولوجية التحضر مع الفكر الإيكولوجي إحدى أهم المناطق النظرية والتطبيقية في الدراسات الحضرية المعاصرة. هذا البحث يتناول كيفية تطور الدراسات الأنثروبولوجية لفهم العلاقات المعقدة بين العمليات الإنسانية والطبيعية في المدن، والتحديات الناشئة عن هذا الفهم المتزايد للترابط بين الاجتماعي والإيكولوجي.

1- تطور مفهوم الإيكولوجيا الحضرية:

بدأت الدراسات الإيكولوجية للتحضر من تصور بسيط للمدينة كنظام بيولوجي منعزل، لكنها تطورت لاحقاً إلى فهم أعمق للمدن كأنظمة مترابطة متعددة الأبعاد. كان لمدرسة شيكاغو للعلوم الاجتماعية دور حاسم في هذا التطور، حيث طبقت مفاهيم إيكولوجية على الفضاء الحضري. مثل نموذج المناطق المركزية والتنافس على الموارد (المالكي، 2019). لكن هذا الفهم الأولي كان غير كافٍ. المعهد الأمريكي للدراسات الحضرية المعاصرة وضع التمييز المهم بين "الإيكولوجيا داخل المدينة" و"الإيكولوجيا للمدينة ككل". الأولى تركز على الكائنات الحية والعمليات الفيزيائية في أماكن محددة (الحدائق، الغابات الحضرية، التربة)، بينما الثانية تعامل المدينة بأكملها كنظام متكامل من الموارد والطاقة والمواد (المالكي، 2019).

2- الأنظمة الاجتماعية-الإيكولوجية:

يمثل المنظور الحديث تحولاً جذرياً نحو فهم الأنظمة الاجتماعية-الإيكولوجية المتكاملة. تعرّف هذه الأنظمة بأنها تحتوي على مكونات بيوفيزيائية واجتماعية متفاعلة بشكل مستمر، وتعمل على عدة مستويات مكانية وزمانية وتنظيمية. المدن، وفقاً لهذا المنظور، ليست مجرد تجمعات سكانية بل هي "بؤر ساخنة" من التفاعلات المعقدة والديناميكية بين المجتمع والأنظمة الإيكولوجية (المالكي، 2019). هذا الفهم مهم لأنه يكسر الثنائية الكاذبة بين الطبيعة والثقافة، التي طالما هيمنت على الفكر الحديث. بدلاً من اعتبار المدن "مصطنعة" بالكامل منفصلة عن الطبيعة، ينظر هذا المنظور إلى المدن كأنظمة حية متطورة حيث يشارك الإنسان والطبيعة في عملية إنتاج الفضاء والمعنى معاً.

3- أنثروبولوجية البيئة وفهم العلاقات الإنسان-الطبيعة في السياق الحضري

أ- الإيكولوجيا الثقافية كنقطة انطلاق.

الإيكولوجيا الثقافية، كإطار نظري أساسي في الأنثروبولوجيا البيئية، توفر فهماً لكيفية تكيف المجتمعات الإنسانية مع بيئاتها من خلال ممارسات ثقافية وتكنولوجية معينة. لكن التطبيق التقليدي للإيكولوجيا الثقافية كان يركز على المجتمعات الريفية والقبلية. التحدي الأنثروبولوجي المعاصر هو فهم كيفية تجلي الإيكولوجيا الثقافية في السياقات الحضرية المعقدة والحديثة وفي في السياق الحضري، تتجلى الإيكولوجيا الثقافية من خلال (Sociology Institute, 2025):

• **الممارسات المكانية:** كيفية استخدام السكان للحدائق العامة، المساحات الخضراء، والمناطق المائية

- **أنماط الاستهلاك والإنتاج:** الخيارات الغذائية، استخدام الطاقة، إدارة النفايات
- **الأنظمة المعرفية المحلية:** الفهم الشعبي للعمليات الإيكولوجية وتأثيرات التلوث والمناخ.

ب- الإيكولوجيا السياسية والتحضر:

فهم الإيكولوجيا الثقافية وحده غير كافٍ. فالإيكولوجيا السياسية توفر طريقة تحليلية حاسمة بالسؤال عن من يتحكم بالموارد ولماذا تُوزع بشكل غير متساوٍ. في السياق الحضري، هذا يعني فهم كيفية أن الهياكل السياسية والاقتصادية تحدد من يحصل على الوصول إلى المناطق الخضراء، من يتعرض للتلوث، ومن يستفيد من مشاريع التخطيط الحضري "المستدام" (Fiveable, 2024).
فالإيكولوجيا السياسية للحضر تؤكد أن ما يبدو قراراً "تقنياً" محايداً حول تصميم المدينة هو في الواقع قرار سياسي يعكس توزيع القوة. على سبيل المثال، مشروع "الخريطة الخضراء" في نيو أورلينز بعد إعصار كاترينا، الذي بدا وكأنه مبادرة بيئية، فُسر من قبل السكان السود كتهديد صريح بالإزاحة والتهجير (Fiveable, 2024).

4- أنثروبولوجية التحضر المعاصرة: ما وراء الإيكولوجيا

أ- المنحى الحرج في الأنثروبولوجيا الحضرية

في تطور مهم، أعادت جمعية الأنثروبولوجيين الأمريكية تسمية قسمها من "أنثروبولوجيا الحضر والهجرة" إلى "جمعية الأنثروبولوجيا الحضرية الحرجة" (CUAA) "هذا التحول يعكس تحولاً فكرياً نحو وضع الحرجية (النقد) في مركز التحليل. الأنثروبولوجيا الحضرية الحرجة تسعى إلى فهم التحضر من خلال عدسات (Fiveable, 2024):

- **نزع الاستعمار:** تحدي المعرفة الموروثة من التقاليد الاستعمارية
- **مناهضة العنصرية:** الاهتمام بكيفية أن العنصرية تُرسخ عبر الفضاء الحضري
- **النسوية:** الاهتمام بالهويات المهمشة والممارسات البديلة
- **مناهضة الرأسمالية:** تتبع كيفية أن المنطق الرأسمالي يشكل الفضاء الحضري والعلاقات

الاجتماعية

ب- دراسة البنية التحتية والبيئة

برز حقل جديد في الأنثروبولوجيا يجمع بين دراسات البنية التحتية ودراسات البيئة. هذا الحقل، الذي يستخدم مفهوم "البنية التحتية المحيطة"، يعترف بأن البنى التحتية الحضرية ليست محايدة من الناحية البيئية والسياسية. البنية التحتية (الطرق، الأنابيب، محطات الكهرباء) تشكل علاقاتنا مع الطبيعة والبيئة بطرق عميقة جداً.

على سبيل المثال، الطريقة التي صممت بها أنظمة الصرف الصحي والمياه في المدن الاستعمارية لا تزال تحدد من يحصل على المياه النظيفة ومن يبقى عرضة للأمراض المرتبطة بالمياه. هذه البنى التحتية، بالرغم من بدوها "حيادية"، هي في الحقيقة حاملة للعلاقات الاجتماعية والقوة التي تعود إلى فترة الاستعمار.

5- الإيكولوجيا الحضرية: المبادئ والممارسات

أ- الإيكولوجيا الحضرية كإطار تصميمي

كان المعماري والمخطط آن ويستون سيبرن من الأصوات الرائدة في صياغة مبادئ "الإيكولوجيا الحضرية" كإطار عملي للتصميم والتخطيط. أساس هذا النهج يقوم على ستة مقترحات أساسية :

1. المدن جزء من العالم الطبيعي: ليست كيانات منفصلة عن الطبيعة، بل هي نظم حية متفاعلة مع العمليات الطبيعية (دوران المياه، دورات العناصر الغذائية، دورات الطاقة)
2. المدن حية: يجب أن توفر المدن بيئات صالحة للعيش للبشر والحيوانات والنبات معاً
3. المدن أنظمة إيكولوجية: تتعامل مع تدفقات الطاقة والمواد والمعلومات من خلال هياكل معقدة
4. الأنظمة الحضرية ديناميكية ومتراصة: التغيرات في منطقة واحدة تؤثر على مناطق أخرى، والحدود جغرافياً سائلة وليست سياسية فقط
5. لكل مدينة سياق عميق وطويل الأمد: البنية الجيولوجية والمناخية والحيوية التي تتجاوز التاريخ البشري

6. التصميم الحضري أداة التكيف البشري: يمكن للتصميم أن يشكل استجابتنا للكوارث والتغير

ب- مبادئ عملية للمدن المرنة

استناداً إلى هذه المقترحات، تقترح الإيكولوجيا الحضرية مبادئ تصميم محددة:

المبدأ	الوصف	التطبيق العملي
التكيف مع العمليات الطبيعية	تصميم المدينة استجابة لدوران المياه والهواء والطاقة، وليس اغفالها أو مقاومتها	تصميم أنظمة صرف صحي "حية" تحاكي دورة المياه الطبيعية
تعزيز التنوع البيولوجي	دمج الطبيعة في الفضاء الحضري ليس للزينة بل لدعم الحياة	إنشاء ممرات بيئية تربط المساحات الخضراء
التقليل من المدخلات والمخرجات	تصميم المدن بحيث تستهلك موارد أقل وتنتج نفايات أقل	إعادة تدوير المياه، استخدام الطاقة المتجددة

المبدأ	الوصف	التطبيق العملي
الربط بين الأنظمة	فهم كيف أن مشاكل المدينة مترابطة ويجب حلها بشكل متكامل	معالجة الفيضانات من خلال فهم كامل حوض المياه، وليس من خلال القنوات وحدها
الاعتراف بالعمق الزمني	الاستفادة من التاريخ الطبيعي والثقافي للمدينة	استخدام المواد والأشكال المحلية التقليدية المثبوتة

ج- المعرفة الإيكولوجية التقليدية والتحضر

أحد التطورات المهمة في الفكر الإيكولوجي الحضري هو الاعتراف بقيمة المعرفة الإيكولوجية التقليدية (TEK) في التكيف مع المدن الحديثة. هذه المعرفة، المكتسبة على مدى قرون من التفاعل المباشر مع البيئات المحلية، توفر رؤى حول (المالكي، 2019) :

- إدارة المياه: تقنيات التقاط مياه الأمطار والحصاد المائي المطورة في المناطق الجافة
 - تجميل الفضاء الحضري: استخدام النباتات الأصلية المكيفة مع المناخ المحلي
 - العدالة الاجتماعية: فهم كيفية أن استخدام الموارد الطبيعية يجب أن يكون عادلاً ومتوازناً
- لكن تطبيق المعرفة الإيكولوجية التقليدية في السياق الحضري يتطلب أكثر من مجرد "نقل" هذه المعرفة. يتطلب تحويل النماذج الحضرية نحو :

- عمليات ديمقراطية حقيقية: إشراك المجتمعات المحلية في صنع القرار
- اعتراف بالسيادة: احترام حقوق الشعوب الأصلية والمجتمعات المحلية على معارفها
- التكامل الفعلي: دمج هذه المعرفة في التصميم والتخطيط بدل اعتبارها إضافة زخرفية

6- الإيكولوجيا السياسية للمدن والعدالة البيئية الحضرية

أ- الأبعاد السياسية للتصميم الحضري

الإيكولوجيا السياسية الحضرية توضح أن التصميم والتخطيط الحضري ليسا محايدين سياسياً. بدلاً من ذلك، تعكس كل قرار حول الفضاء الحضري علاقات القوة والمصالح الاقتصادية. مثال واضح على ذلك هو ظاهرة "التحسن البيئي"، حيث تؤدي مشاريع تحسين البيئة والمساحات الخضراء إلى ارتفاع أسعار العقارات وإجبار السكان ذوي الدخل المنخفض على المغادرة . هذا يثير سؤالاً حرجاً: إذا كانت الإيكولوجيا الحضرية والتصميم الأخضر يؤديان إلى تهجير السكان، فهل نعتبرهما حقاً "استدامة"؟

ب- العدالة البيئية الحضرية كإطار شامل

العدالة البيئية الحضرية (UE) توفر إطاراً متكاملاً يجمع بين الأبعاد الإيكولوجية والعدالة الاجتماعية. تركز على :

- **العدالة الإجرائية:** ضمان أن يكون للمجتمعات المهمشة صوت حقيقي في القرارات التي تؤثر على بيئتهم
- **العدالة التوزيعية:** التأكد من أن فوائد البيئة (المساحات الخضراء، الهواء النظيف) وأعباؤها (التلوث، الضوضاء) موزعة بشكل عادل
- **العدالة الاعترافية:** الاعتراف بالمعارف والقيم المختلفة للمجتمعات وتضمينها في التخطيط هذا الإطار يسلط الضوء على أن العديد من المدن الحديثة، خاصة في الجنوب العالمي، توارث أنماط عدم المساواة الاستعمارية. المناطق منخفضة الدخل في الأحياء السفلى من المدن، على سبيل المثال، تعاني من تراكم النفايات والتلوث بسبب قرارات تاريخية وضعت المصانع والمكبات بالقرب من أحيائهم .

7- المرونة الحضرية والتكيف من منظور أنثروبولوجي.

أ- فهم المرونة ما وراء التكنولوجيا

المرونة الحضرية كمفهوم أصبحت شائعة في التخطيط والتصميم. لكن من منظور أنثروبولوجي، يجب أن نسأل: مرونة لمن؟، المرونة التقنية البحتة قد تخفي أنماط التهميش والإقصاء، فالأنثروبولوجيا توفر فهماً أعمق للمرونة كظاهرة اجتماعية-ثقافية. المجتمعات المهمشة غالباً ما تطور استراتيجيات مرونة خاصة بهم للتعامل مع البيئات الهشة - من خلال شبكات الدعم الاجتماعي، الممارسات التعاونية، واستخدام مبدع للموارد المتاحة .

ب- المرونة والحركات الاجتماعية

من منظور أنثروبولوجي، المرونة الحضرية الحقيقية تنشأ من التنظيم المجتمعي والحركات الاجتماعية. في مانابلا، مثلاً، سكان مستوطنة بازيكو العشوائية، بدلاً من الاعتماد على المشاريع البيئية الحكومية، أنشأوا مشروع الأشجار المائية المجتمعي الخاص بهم. هذا ليس مجرد تدخل بيئي، بل هو تعبير عن الوكالة السياسية والمطالبة بالحق في البقاء في المدينة.

8- إعادة التفكير في العلاقة بين الإنسان والطبيعة:

أ- البيولوجيا الحضرية والتطور التكيفي

الدراسات الحديثة في بيولوجيا الحضر والتطور تكشف أن التحضر يدفع عمليات تطورية معقدة. الأنواع تتطور بسرعة للتكيف مع البيئات الحضرية - من تغيرات في سلوك الطيور إلى تطور تحمل المعادن الثقيلة في النباتات، لكن هذا يثير أسئلة أنثروبولوجية مهمة: هل هذا التطور يمثل شكلاً من الاستغلال الحضري، حيث تصبح المدينة البيئة الطبيعية الوحيدة لهذه الأنواع؟ وماذا يعني هذا للعلاقات الإيكولوجية الأوسع والتنوع البيولوجي؟.

ب- الحضرة والتمثيل الرمزي

من منظور أنثروبولوجي، البيولوجيا الحضرية ترتبط أيضاً بالعمليات الرمزية والثقافية. كيف تعيد المجتمعات تمثيل وفهم الطبيعة والحيوان والنبات في السياق الحضري؟ هل يتعامل السكان مع الطبيعة الحضرية كمورد، أم كشيء له قيمة جوهرية، أم كشيء يجب تجنبه؟
الحقائق الحضرية العامة، على سبيل المثال، ليست مجرد أنظمة إيكولوجية بل هي أماكن للمعاني والهويات المتنافسة. قد ترى سكان المناطق الثرية الحقائق كمساحات للاستجمام الفاخر، بينما قد ترى المجتمعات الأفقر نفس الحقائق كتهديد محتمل للهجير.

9- استهلاك المواد والمدن: الأبعاد الأنثروبولوجية

أ- الحضرة والاستهلاك

كل مدينة لها "استقلاب حضري" معين - تدفقات المواد والطاقة التي تدخل وتغادر. دراسات اقتصادية وأنثروبولوجية توضح أن التحضر وعدم المساواة لهما تأثيرات معقدة على استهلاك المواد. التحضر يقلل من استهلاك المواد الإجمالي (لأن الكثافة تسمح بتقاسم الموارد) لكن عدم المساواة يزيد الاستهلاك (لأن المجتمعات الثرية تستهلك كثيراً). هذا يعني أن السياسات التي تعالج عدم المساواة قد تكون أكثر فعالية في تقليل التأثير البيئي من مجرد التحضر وحده.

ب- الممارسات المحلية والاستدامة

من منظور أنثروبولوجي، الاستدامة ليست مفهوماً تقنياً مجرداً بل ممارسة ثقافية محددة. الطرق التي يطبخ بها الناس، يتسوقون، يتنقلون، ويتخلصون من الفضلات - كل هذه الممارسات اليومية لها تأثيرات بيئية ضخمة. تغيير هذه الممارسات يتطلب فهماً عميقاً للقيم والمعتقدات والروتينات الاجتماعية.

ج- التحضر غير المتكافئ والآثار الإيكولوجية في الجنوب العالمي

يشكل التحضر السريع في الجنوب العالمي سياقاً مختلفاً جذرياً عن التحضر في الدول الشمالية الصناعية. في أفريقيا وآسيا، التحضر يحدث بسرعة كبيرة في مناطق ذات قيمة إيكولوجية عالية، مع بنية تحتية محدودة وقدرة محدودة على التخطيط المستدام، فالدراسات من جنوب أفريقيا، على سبيل المثال، توضح أن النموذج الثنائي (حضر/ريف) غير كافٍ لفهم الديناميكيات الحقيقية. السكان يتنقلون بين المناطق الحضرية والريفية، ويعتمدون على كلا النظامين للعيش.

ثالثاً / جسور الالتقاء بين الفكر الخلدوني والفكر الإيكولوجي في أنثروبولوجية التحضر.

1- مفهوم التوازن والاستدامة

يشارك الفكر الخلدوني والفكر الإيكولوجي في قيمة أساسية مشتركة: أهمية الحفاظ على التوازن. أدرك ابن خلدون أن الحضارة تزدهر عندما يكون هناك توازن بين الموارد والسكان والمؤسسات

الاجتماعية والسياسية. أما الفكر الإيكولوجي فيركز على الحفاظ على التوازن بين استهلاك الموارد الطبيعية وقدرة البيئة على التجدد والاستمرار، وعندما ينكسر هذا التوازن - سواء بسبب الفساد الإداري والاجتماعي كما يقول ابن خلدون، أو بسبب الإفراط في استخراج الموارد كما يقول الفكر الإيكولوجي - تحدث أزمة تؤدي إلى تدهور الحضارة .

2- الديناميكية والتحول المستمر

يشترك المنظوران في رفض فكرة الثبات والاستقرار الدائم. يرى ابن خلدون أن المجتمعات تمر بدورة طبيعية من النمو والازدهار والتدهور، بينما يرى الفكر الإيكولوجي الحديث أن الأنظمة الإيكولوجية تمر بمراحل من الاستقرار والاضطراب والإعادة التنظيم، وهذا يعني أن الأنظمة الحضرية ليست معطى ثابتاً بل تتطلب إدارة مستمرة وتكيفاً مع الظروف المتغيرة. الحضارات التي لا تتكيف مع الظروف الجديدة تضعف، كما يقول ابن خلدون، والمدن التي لا تحافظ على توازنها الإيكولوجي تواجه أزمات، كما يقول الفكر الإيكولوجي.

3- الدور الحاسم للموارد والبيئة

يتفق الفكر الخلدوني والفكر الإيكولوجي على أن الموارد الطبيعية والبيئة لا تشكل مجرد خلفية للحياة البشرية بل هي محددات حقيقية للإمكانيات الاجتماعية والاقتصادية. أدرك ابن خلدون أن "الخصب والعقم يحددان مصير الحضارات"، وأدرك الفكر الإيكولوجي أن "الموارد المحدودة والتدهور البيئي يشكلان تهديداً حقيقياً للمدن المعاصرة".

4- العدالة والعدم المتساوي

بينما لم يستخدم ابن خلدون مصطلح العدالة الاجتماعية بالمعنى الحديث، فإن تحليله للفساد والظلم السياسي يعكس وعياً بأن الحضارات تضعف عندما يسود الظلم. وبالمثل، يركز الفكر الإيكولوجي المعاصر على قضايا العدالة البيئية، مشيراً إلى أن "الأحياء الفقيرة غالباً ما تعاني من تلوث بيئي أكثر من الأحياء الغنية".

رابعا / مواطن الاختلاف بين الفكر الخلدوني والفكر الإيكولوجي في أنثروبولوجية التحضر.

1- النطاق والسياق التاريخي

رغم الجسور المشتركة، هناك اختلافات مهمة بين الفكرين. كتب ابن خلدون في سياق ما قبل-صناعي حيث كانت الموارد الطبيعية أكثر وفرة والسكان أقل بكثير من اليوم. كتب الفكر الإيكولوجي الحديث في سياق صناعي وما بعد-صناعي حيث الضغوط البيئية قصوى والموارد تتناقص.

2- الأدوار والاحتمالات:

يؤكد ابن خلدون على دور القيادة السياسية والإرادة البشرية في تشكيل مصير الحضارات، بينما قد يميل الفكر الإيكولوجي أحياناً إلى التركيز على القيود البيئية والحدود الطبيعية. هذا قد يعكس نقاشاً أوسع حول التوازن بين الحتمية البيئية والقدرة البشرية على التكيف والتغيير .

3- المعايير والقيم:

ينطلق ابن خلدون من إطار قيمي إسلامي واضح، حيث يرى الفساد والظلم كأسباب للتدهور. الفكر الإيكولوجي الحديث قد يكون أكثر قيمة بشأن الاستدامة والعدالة، لكنه أقل ارتباطاً بإطار ديني محدد .

خامساً/ نحو تركيب أنثروبولوجي موحد بين المنظورين.

1- نموذج متكامل للتحضر

يمكن محاولة دمج رؤى الفكر الخلدوني والفكر الإيكولوجي لتطوير نموذج متكامل لفهم التحضر. يأخذ هذا النموذج في الاعتبار:

- **العوامل الاجتماعية والسياسية:** دور القيادة والمؤسسات والتماسك الاجتماعي (العصبية) في بناء وتطوير الحضارات الحضرية.
- **العوامل الإيكولوجية والبيئية:** الموارد الطبيعية، المناخ، الأراضي الخصبة، والقدرة على الاستدامة.
- **العوامل الثقافية والقيمية:** الأنماط الثقافية، التقاليد، والقيم المشتركة التي تربط أفراد المجتمع.
- **العوامل الاقتصادية:** الإنتاجية، التجارة، توزيع الموارد، والازدهار الاقتصادي.

2- دورة التحضر الديناميكية

يمكن رؤية التحضر كعملية ديناميكية تمر بمراحل متعددة:

- **مرحلة الانتقال الأولى:** من المجتمع البدوي إلى التجمعات الحضرية الأولى، حيث يتجمع السكان حول مصادر الماء والموارد الاقتصادية.
- **مرحلة النمو والازدهار:** حينما تزداد الموارد، وتتطور المؤسسات الاجتماعية والسياسية، وتظهر الحرف والعلوم والثقافة.
- **مرحلة الاستقرار النسبي:** حيث تصل الحضارة إلى ذروتها، وتتطور نظم معقدة للحكم والاقتصاد.
- **مرحلة التدهور والتحول:** عندما يبدأ الفساد والظلم في الظهور، أو عندما تتدهور الموارد البيئية، أو عندما تضعف الروابط الاجتماعية .

3- الأنثروبولوجيا الحضرية المعاصرة

تطورت الأنثروبولوجيا الحضرية المعاصرة لتشمل "دراسة الحياة الاجتماعية والثقافية والبيئية في المدن، مع الاهتمام الخاص بالعدالة والاستدامة والتغيير الاجتماعي". تستخدم هذه الحقل

تقنيات البحث الإثنوغرافية المتقدمة لفهم الحياة الحضرية من وجهة نظر السكان أنفسهم، حيث يسعى الباحثون في الأنثروبولوجيا الحضرية إلى فهم كيفية أن السكان في المدن المختلفة يتفاعلون مع التحضر بطرق متنوعة. تركز الدراسات على :

- الكيفية التي يتكيف بها الأفراد والمجتمعات مع حياة المدينة
- كيفية حفاظ المجتمعات على هويتها الثقافية في ظل التغيرات الحضرية
- الديناميكيات الاقتصادية والاجتماعية التي تشكل الفضاءات الحضرية
- قضايا العدالة والمساواة والاستبعاد في المدن

سابعاً: الآفاق المستقبلية والبحثية في الأنثروبولوجيا الحضرية :

1- نحو أنثروبولوجيا توليفية للتحضر:

يشير البحث المعاصر إلى ضرورة تطوير "أنثروبولوجيا توليفية" للتحضر تدمج رؤى تاريخية وإيكولوجية واجتماعية. هذه الأنثروبولوجيا يجب أن تكون :

- متعددة الأبعاد: تأخذ في الاعتبار العوامل الاجتماعية والاقتصادية والبيئية والثقافية معاً
- مقارنة: تفحص أنماط التحضر المختلفة عبر السياقات الجغرافية والتاريخية المتنوعة
- نقدية: تسأل عن قضايا القوة والعدالة البيئية
- تطبيقية: توفر رؤى عملية للمخططين والسياسيين والمجتمعات.

2- البحث التشاركي المجتمعي

يؤكد الاتجاه الحديث على أهمية "البحث التشاركي المجتمعي" حيث يعمل الباحثون مع المجتمعات المحلية لفهم احتياجاتهم وتطوير حلول محلية. هذا يعكس قيمة ما دعا إليه ابن خلدون من الملاحظة الميدانية المباشرة والاستماع إلى آراء الناس .

3- المدن الذكية والمستدامة

تطور الحديث عن "المدن الذكية" و"المدن المستدامة" يعكس محاولة دمج التقدم التكنولوجي مع الاستدامة البيئية والعدالة الاجتماعية. لكن هذه الرؤى يجب أن تأخذ في الاعتبار الدروس التاريخية من الفكر الخلدوني عن أهمية التماسك الاجتماعي والعدالة كأساس لحضارة مستدامة .

خاتمة:

يشارك الفكر الخلدوني والفكر الإيكولوجي في قيمة أساسية مشتركة: أهمية الحفاظ على التوازن. أدرك ابن خلدون أن الحضارة تزدهر عندما يكون هناك توازن بين الموارد والسكان والمؤسسات الاجتماعية والسياسية. أما الفكر الإيكولوجي فيركز على الحفاظ على التوازن بين استهلاك الموارد الطبيعية وقدرة البيئة على التجدد والاستمرار، وعندما ينكسر هذا التوازن - سواء بسبب الفساد

الإداري والاجتماعي كما يقول ابن خلدون، أو بسبب الإفراط في استخراج الموارد كما يقول الفكر الإيكولوجي - تحدث أزمة تؤدي إلى تدهور الحضارة

وقد مثلت مدرسة شيكاغو الإيكولوجية نقطة تحول حاسمة في فهمنا للمدن والحياة الحضرية. من خلال تطبيق مبادئ البيئة الطبيعية على المجتمعات البشرية. ومن خلال تطوير منهجيات بحثية مبتكرة، أسست المدرسة لعلم اجتماع حضري قوي وشامل.

رغم الانتقادات التي وجهت لبعض نماذجها، خاصة نموذج المناطق المركزية، فإن المبادئ الأساسية للمقاربة الإيكولوجية ما زالت ذات صلة. كل مدينة تمثل "مختبراً حياً" يمكن دراسته، وكل منطقة حضرية تشهد ديناميات معقدة من المنافسة والسيطرة والخلافة، وكل ظاهرة اجتماعية حضرية متجذرة في السياق المكاني والبيئي.

اليوم، وفي عصر العولمة والتغير المناخي والتضخم الحضري، تبدو الأطر النظرية والمنهجية لمدرسة شيكاغو مفيدة أكثر من أي وقت مضى. فهم المدن ليس كمجرد تجمعات سكانية، بل كأنظمة بيئية حية ومعقدة، هو المفتاح لمعالجة التحديات الحضرية المعاصرة والتخطيط لمدن أكثر استدامة وعدالة اجتماعية

قائمة المصادر والمراجع:

- نصرالدين بن عودة(2022)، إسهامات ابن خلدون في إثراء المفاهيم الأنثروبولوجية في المقدمة، مجلة أنثروبولوجيا، مجلد 8، عدد 02.
- شيلي ربيعة(2017)، السلطة والقبيلة من خلال كتاب المقدمة لعبد الرحمن ابن خلدون، مجلة السائرة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، العدد 06.
- عيساوة وهيبة (2007)، مفهوم الحضارة عند ابن خلدون وأبعاده، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد 1، العدد 2.
- ابن خلدون(2012)، مقدمة ابن خلدون، دار النهضة، مصر.
- عبد الرحمن المالكي(2019)، مدرسة شيكاغو ونشأة سوسولوجيا التحضر والهجرة، دار أفريقيا الشرق.

Ezzeddin, I. (2024). Ibn Khaldūn's Epistemology of Natural Science within his Muqaddimah. Journal of Islamic History, 5(1), 77-90.

Razak, N. A., & Sanusi, R. (2010). The Relationship Between Man and Nature in Ibn Khaldun's Muqaddimah. e-Banki: Journal of Social Sciences & Humanities, 5, 365-375.

Garrison, D. H. (2012). Ibn Khaldun and the Modern Social Sciences. Dissertation, University of Denver.

- Understanding Urban Ecology: The Chicago School's Legacy. (2025). Sociology Institute.
- Fiveable. (2024). Environmental Anthropology and Sustainability. Retrieved from
- Wirth, L. (1938). "Urbanism as a Way of Life." *American Journal of Sociology*, 44(1), 1-24.
- Drake, S. C., & Cayton, H. R. (1945). *Black Metropolis: A Study of Negro Life in a Northern City*. New York: Harcourt, Brace.
- Hughes, E. C. (1979). *The Growth of an Institution: The Chicago Real Estate Board*. Chicago: Society for Social Research.